فلسفة الأسماء

بقلم ظافر القاسمي

إذا كانت اللغات من ألوان الحياة الفكرية الصريحة التي يتسم بها الانسان وتميزه من سائر الكائنات الحية، فان الأسماء — أو ما يعبر عنه الصرفيون بأنه دال على معنى في نفسه غير مقترن وضعاً بأحد الأزمنة الثلاثة المعروفة — من مظاهر بيئاته الاجتماعية والطبيعية. فلسنا نبالغ إذن إذا قلنا بأن لعنصر الأسماء في اللغات فلسفة خاصة مستقلة، استطاع العلم الحديث مؤخراً أن يقتبسها ويستزيد منها بل يستقلها استقلالاً بالغاً يستحق عليه كل ثناء وإعجاب وإكبار. ومن الحق علينا القول بأن أقطاب اللغات في العالم لا يتفقون على أقدمية الأسماء وأسبقيتها في اللغة، فمنهم من يذهب إلى أنها أسبق مرتبة في الوضع والاستعمال من الحروف والأفعال، لأن منزلتها في النفس من حيث القوة والاعتقاد أن تكون قبل الفعل، والفعل قبل الحرف؛ ومنهم من يذهب — وهؤلاء معظمهم من أصحاب التوقيف ودعاة الالهام — إلى أن جميع الأصول اللغوية إنما وقع الوضع فيها معاً فلا يجوز لك الاعتقاد بسبق الاسم على الفعل أو سبق الفعل على الحرف

ومهما يكن من شيء فان بعض الأسماء — أعني أسماء الأعلام والأجناس بوجه خاص — تمتاز على سائر الأصول اللغوية بأنها وضعت للدلالة على الأشياء المحيطة بالانسان في بيئتيه الطبيعية والاجتماعية، وما عساه ينجم عنهما في حياته الفكرية، بعكس الحروف والأفعال — مثلاً — التي إنما وضعت لتدخل بها « الأسماء في المعاني والأحوال »[1]، أو بعبارة أخرى لتربط ما بين الأسماء في جمل معلومة مستقلة بدلالاتها اللفظية

ومعنى ذلك أنه يتعذر على الانسان مثلاً أن يستدل بالأفعال والحروف العربية على نوع الحياة الطبيعية والاجتماعية التي كان يحياها العرب قبل الاسلام، إن لم يكن ذلك مستحيلاً عليه، في حين أن استدلاله بالأسماء يكاد يكون في حكم الواجب الذي لا عدول عنه، لأنها تعكس لنا ألواناً من البيئات المتنوعة التي كان العربي عرضة لها آنئذ، كأسماء الكائنات الحية وغير الحية التي كان على اتصال بها، وأنواع الأسلحة التي كان يستعملها في حروبه وغاراته، والموازين والأثقال التي كان يصطنعها في بيعه وشرائه ونحوه. كما أنها تعكس لنا أيضاً شيئاً من أثر البيئة الطبيعية في نفسه وإحساساته، ففي ميسورك مثلاً أن تقرر باحصاء الأسماء التي تعبر في العربية عن ضروب المصائب والرزايا من ناحية، والأسماء التي تعبر عن مظاهر اللهو والعبث من ناحية أخرى، ثم الموازنة بينها، ما إذا كانت بيئة العرب قبل البعثة بيئة قاسية مظلمة قاحلة أم بيئة منشرقة سمحة خصبة

وليس ذلك وحسب، بل في ميسورك الاستدلال بالأسماء العربية « العاربة » منها و « المعرّبة »، الأصيلة والدخيلة، على مختلف التقلبات السياسية التي طرأت على الوسط الاسلامي في غضون تاريخه الطويل الحافل؛ وبالتالي الاستدلال على مختلف الأدوار الاجتماعية التي تقلبت عليه، ومقدار نفوذ كل من العناصر الفلسفية والجنسية فيه؛ فاذا كانت الأسماء الفارسية مثلاً في الآداب والفنون أغزر من الأسماء اليونانية دل ذلك على أن نفوذ الفرس من هذه الناحية كان أبعد من نفوذ اليونان، وإذا كانت الأسماء اليونانية في ميدان الفلسفة أوفر من الأسماء الفارسية والهندية دل ذلك على أن العرب قد تأثروا بالفلسفة اليونانية أكثر من تأثرهم بفلسفة الفرس والهند. بيد أنه بالأسف ليس الوصول إلى هذا الاستدلال باليسير الهين لأن المعجم العربي ناقص من وجوه كثيرة، أهمها الوجه التاريخي المدعم بالشواهد والأدلة مما لا يتسع المقام لذكره

هذا إلى عثورك خلال أزمنة التيقظ الفكري والنهضات الدينية الحافلة على بعض أسماء الأعلام القائمة بين الأوساط العامة لأنها غالباً هي أسماء بعض الزعماء أو القادة أو الأنبياء الذين لهم الفضل كل الفضل في بعث هذه النهضات وإحيائها، بحيث يستدل منها على ما لهؤلاء المصلحين من حظوة لدى الجمهور، وما لتلك النهضات من سحر في أفئدة العامة. ومن ثم كانت لبعض الملل أسماء خاصة تعرف بها ولا يصطنعها غيرها كعزرا واسرائيل في

(١) الخصائص لابن جني ٤٣٢

اليهودية ، وحنا وبطرس فى المسيحية ، ومحمد والحسين فى الاسلام

بل ترى فى بعض أزمنـة الاضطهاد والغلو الدينى أن لفظ المولى عز وجل يشترك عادة فى أسماء الملوك والأمراء من أولى الحل والعقد فى تلك الأعصر الرهيبة . يتضح ذلك من أسماء الخلفاء من ولد العباس فى أواخر أيامهم حين أمست الخلافة رمزاً للنفوذ الدينى مجرداً عن السلطة الزمنية ، وفى خلفاء الفاطميين وغير الفاطميين من السلالات الملكية التى قامت على الدعايات الدينية

ومن ناحية أخرى ترى أن بعض الأسماء قد تضيع فى زوايا الاهمال والنسيان ، ولو إلى حين ، لأنها تكون عادة أسماء بعض الأفراد أو الجماعات المضطهدة ، بحيث يستدل من ذلك على مبلغ غلو الدولة القائمة وشدتها على الفرق المناوئة ، فمثلاً إذا علم القارىء أن العلويين والشيعة كانوا مضطهدين فى الدولة الأموية ، فانه يستطيع أن يستدل على مقدار هذا الاضطهاد إذا ذكر أن الناس فى أيامها كانوا كما يقول المستشرق « مارجليوث » يتحاشون تسمية الأبناء والأحفاد بأسماء علوية كعلى والحسن والحسين وأشباهها (١)

* * *

وبعد فقـد أوردنا لك بعض فلسفة الأسماء موضحة بالأمثلة النظرية ، ولـكننا لم نشرح لك كيف كان استغلال العلم الحديث لها ، لأن هـذه الأمثلة على وفرتها قليلة النفع من ناحية عملية تطبيقية إن لم تـكن عديمته ، لأن الحياة القريبـة الجاهلية من الأزمنة التاريخية التى تتوفر فيها النصوص والوثائق والآثار . ومن هنا قطعنا بأن الحاجة غير ماسة إلى استيضاح الأسماء العربية وتفصيل ما تنطوى عليه من ألوان هذه الحيلة المتنوعة

وإنما تتبين فلسفة الأسماء الخاصـة وترجح قيمتها العملية المحسوسة فى الأبحاث الدقيقة المنعقدة حول حياة الانسان الأولى ، التى لا تجد لدرسها من المصادر الأولية سـوى اللغات وبعض الآثار الجيولوجية التى نراها تـكتشف بين حين وحين ، وينفض الغبار عنها فتقيم الموج من هذه الدراسات وتثير المهم المستغلق فمن ذلك أن أصل اللغات الأوروبية ظل إلى عهد قريب مجهولاً أو فى حكم المجهول ، فنشأت حول ذلك نظريات عديدة متباينة ، لـكل نظرية أنصار متحزبون وعلماء محققون ، ثم إن بعض الثقات حاولوا درس هذه اللغات بطريق القياس والمقابلة فخرجوا من هذا الدرس بنتائج باهرة لم يتسق للمنطق والتاريخ أن يتوصلا إليها . إذ وجـدوا أن بين اللغات الأوروبية على اختلافها من ناحية واللغة السنسكريتية ـ أقدم اللغات الهندية الموجودة ـ من ناحية أخرى كثيراً من الشبه فى القواعد والأوضاع اللغوية ، كما وجدوا أن فيها بعض الأسماء المشتركة كبعض أسماء الأعداد والأجناس ونحوها ، فاستخلصوا من ذلك أنه لا بد من أن تـكون اللغات الأوروبية والهندية من فصيلة واحدة دعوها باللغات « الأندو أوروبية » Indo - Europeon

وإذ انتهوا من ذلك فانهم حاولوا أن يستدلوا بهذه الأسماء على موطن « الأندو أوروبين » الأصلى ووصف بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، وما إذا كانوا يعرفون البحر والأحراج والأنهار ، وأى أنواع الحيوانات كانوا على اتصال وثيق بها ، وهل عرفوا الحديد والبرونز قبل شتاتهم وانقسامهم قبائل وشعوباً ، ثم هل كانوا على درجة كبيرة من التمدن والحضارة ؟ أم كانوا بعد فى طور الفطرة الانسانية العريقة فى البداوة ، ولهم فى ذلك أبحاث مطولة دقيقـة تنطوى على كثير من قوة التحقيق والتحليل ورجاحة الفكر والنظر

وقس عليه محاولات المستشرقين فى الاستدلال ببعض الأسماء المشتركة بين الأقوام السامية على موطن الساميين الأول ونوعه ، وحضارة الساميين ومقدارها ، بل قس عليه أبحاث المحققين فى مختلف نواحى الحياة الانسانية قبـل الأعصر التاريخيـة حيث تنعدم الآثار والمنقولات ، فلا تـكاد تجد من مصادر درسها إلا اللغات التى نشأت مع الانسان وسايرته فى تطوره واستوائه

فالعجب من العلم الحديث ونشاطه ومؤهلاته البالغة التى لم تترك كبيرة ولا صـغيرة من صامت الـكون أو ناطقه دون أن تحاول استقراءها ونبش دفائنها عسى أن يكون فيها ما ينير سبل القوم فى تفهم أسرار الـكون ومظاهر الحياة الانسانية

يافا ظافر القاسمى

(١) فى كتابه « محاضرات على مؤرخى العرب » ص ٨٦